

## التنازل الطوعي عن السلطة في الإسلام

### "الحسن بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) نموذجاً"

د. الريح حمد النيل أحمد الليث\*

تقديم:

ضرب الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مثالا فاق فيه السابقين وأعجز عن الإتيان بمثله اللاحقين وهو في الحالة التي كان عليها خليفة يلي أمر المسلمين، غير عدد قليل لا يتعدى أصابع اليد في مسيرة العلاقة بين الإنسان والسلطة (على سبيل المثال نذكر معاوية بن يزيد بن معاوية الذي تنازل عن الخلافة بعد أيام قليلة قيل أنها لم تتجاوز العشرين، فكثيرون هم الذين يسعون إلى السلطة وهليلون جدا أولئك الذين تسعى إليهم السلطة. والحسن "رضي الله عنه" من هذا الصنف الأخير، جاءت إليه السلطة تمشي على قدمين ترتجفان كلما دننا منه تقديرا له واحتراما وخوفا وخجلا وطمعا، خوفا من أن يصددها ولا يحفل بها، وخجلا ممن بشره جده رسول الله صلى الله عليه وسلم السيادة لأنه سيد وسيصلح الله به بين طائفتين فهو ارفع منها شأننا وأعظم مكانا وأجل قدرا وأكبر من أن تقال منه ولعاب الآخرين لها يسيل، وطمعا في الفوز برضاء وقبوله لها حتى تتشرف به وتسمو وتزدان وتزدهي وتفتخر، بان سبط رسول الله وأشبه الناس به قد منّ عليها بعطفه وزانها وصلاحه الذي فيه صلاحها وفلاحها وشفاءها من العلل والأدواء والرغبات والأهواء، فمثله في زمانه قليل وقد ذهب أكثر الأخيار من الخيار في ذلك الزمن المختار.

والحسن بن علي "رضي الله عنه" أقدم على أمر في الإسلام حفظ به الدماء وحقق، وكفى الإسلام وأهله الشرور والفتن لما قبل بيعة الناس له خليفة لهم ولما تنازل عن حقه في الخلافة، فلم يجد سوى القليل من الاهتمام من جانب المؤرخين الذين درج كثير منهم على تجاوز خلافته، فظلوا يقفزون من الراشدين إلى الأمويين متجاوزين فترة الستة أشهر

المكاملة للثلاثين عاما الفترة الكلية للخلافة الراشدة والتي سيأتي من بعدها ملك عضوض لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: "الخلافة بعدي ثلاثون عاماً ثم تكون ملكاً أو ملوكاً"، محدثين بذلك فراغاً تاريخياً سلطوياً بين اغتيال علي وبيعة معاوية رضي الله عنهما، فلا يشيرون إلا إشارات ضمنية عابرة إلى تنازل الحسن رضي الله عنه عن حقه في الخلافة لمعاوية رضي الله عنه، وكأن ما قام به الحسن رضي الله عنه لا يستحق أن تقرد له الصفحات وتؤلف فيه الكتب، خاصة وأن الحسن رضي الله عنه بتنازله هذا نجح في لم شمل المسلمين بعد أن كاد ينفطر عقدته وتتشتت حباته بعد اغتيال الإمام علي رضي الله عنه، فبدأت الجماعة الإسلامية تتشكل مرة أخرى متجاوزة مرارات صفيين وما تلاها واغتيال الإمام وما أعقبه، معبرين عن ذلك في التقافهم حول الحسن ومبايعته "رضي الله عنه" خليفة ليس لأنه ابن الخليفة الرابع "كرم الله وجهه" فحسب وإن لم نستبعد ذلك، ولكنه في اعتقادنا كان الشخصية الأكثر قبولا آنذاك لخلو سيرته من كثير مما يشين ويعاب ويحول بينه وبين اختياره خليفة حتى ذهب بعض المؤرخين إلى أفراد مساحات مقدرة لفترة حكمه أو خلافته، بينما ذهب البعض الآخر إلى أن يطلق عليه خامس الخلفاء الراشدين وأن يسميه خليفة.

وبالنظر إلى الظروف التي أعقبت اغتيال الخليفة الرابع ومبايعة الحسن "رضي الله عنه" خليفة رأيت أن أعد هذه الدراسة تحت هذا العنوان متساوياً حدثاً عظيماً من رجل عظيم استطاع في فترة قصيرة وهو خليفة للمسلمين أن يحقق دماء أنفس وأرواح عزيزة عند الله سبحانه وتعالى من أن تراق، خاصة وأن الحجاز قد ارتوت أرضه بدماء ثلاثة من خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم ودماء الكثير من الصحابة الأخيار الأطهار، ولم تعد في حاجة إلى أن تسال عليها دماء جديدة وتزهق أرواح مسلمة والإسلام لم يزل في أشد الحاجة إليها حتى يشتد عوده ويقوى، وفي سبيل هذا خسر الحسن الدنيا وركلها إلى غير رجعة وكسب الآخرة، فترفع عن الحسابات الشخصية والحساسيات الفردية، فلم يعد يعنيه مما فات شيء فاتحاً بذلك صفحة جديدة يتعايش فيها كل المسلمين، فقبل الصلح مع معاوية رضي الله عنه والجيش معبأ والنفس مشحونة مستعدة واختلف المؤرخون حول الأسباب التي دفعته إلى المصالحة بدلاً عن المصادمة،

بين مآدح وقادح، مترفع ومتراجع ومتحامل، وبين منصف مجتهد ومقارب مبتعد، فاختار أن يتنازل عن الخلافة لمعاوية وزاد اختلاف المؤرخين حول تفسير هذه الظاهرة النادرة في تاريخ السلطة السياسية في الإسلام قديمه وحديثه.

وفي البدء ينبغي الإشارة إلى أن السلطة يستمدّها الخليفة أو ولي الأمر في الدولة الإسلامية- تحت أي اسم كان- من الشعب والأمة عن طريق المبايعة، وأن السلطة شيء مختلف تماماً عن الشريعة على خلاف ما ذهب إليه كثيرون ممن كتبوا عن الدولة الإسلامية من أن السلطة فيها تمنح للخلفاء من الله كما كان الأمر في أوروبا في العصور الوسطى، إذ أن النظام الإسلامي سياسي وديني في وقت واحد، ذلك أن حقيقة الإسلام شاملة الناحيتين المادية والمعنوية (الروحية) والسلطة في الإسلام ليست مطلقة بل هي مقيدة بأحكام الشريعة الإسلامية وبأحكام حقوق الإنسان وحياته الأساسية وبواجب الشورى التي فرضها القرآن وأخيراً فهي سلطة مسئولة بموجب شريعة القرآن.<sup>١</sup> ويقول الدكتور إبراهيم محمد زين في هذا الخصوص: "احتلت مسألة السلطة موضع القاسم المشترك بين مؤلفات الفقهاء والمتكلمين والفلاسفة، وبالرغم من أنها قد أخذت البعد الديني "الميتا-فيزيائي"- الذي يكتنف المسائل الاعتقادية في مبناها العام- إلا أن منحى تناولها قد ولى شطر الاتجاه الوضعي، ذلك أن السلطة ترتبط بالواقع البشري وتنظم الحياة اليومية، كما أن السلطة في الإسلام لا تعترف بما يسمى بالحقوق الإلهية للملوك، فكل ما يخصها من واجبات وحقوق مستند على النصوص أو التجربة التاريخية لدولة المدينة والخلافة الراشدة، فهي إذن تتمثل في واقع موضوعي يمكن التأكد من صحة الحكم في أي أمر يخصه".<sup>٢</sup>

وبالرغم من اختلاف المؤرخين حول تصنيف الحسن بن علي "رضي الله عنه" ضمن الخلفاء الراشدين، والحديث عنه في إطار الحديث عن تاريخ الخلافة الأموية في كثير من الأحيان، فإننا نرى أنه من الضروري البدء بتناول ترجمته ومكونات شخصيته التي

١ - صابر محمد دياب: النظم والنظريات السياسية دراسة تاريخية مقارنة. جامعة القاهرة فرع الخرطوم، الخرطوم، ١٩٨٨م-١٤٠٨هـ، ص ٤٨/٤٩.

٢ - إبراهيم محمد زين: السلطة في فكر المسلمين. الدار السودانية للكتب. الخرطوم ١٩٨٢م-١٤٠٣هـ، ص ٥.

أهله لأن يبایعه الناس بالخلافة ودورها في ما أقدم عليه من صلح وتنازل عن السلطة، وكذلك فترة حكمه القصيرة والتي لم تزد عن ستة أشهر اكتمل بها العقد الزمني للخلافة الراشدة الذي نقص نتيجة لاغتيال أبيه الخليفة الرابع علي رضي الله عنه، ذلك أنّ مبايعة الحسن بن علي بن أبي طالب "رضي الله عنه" خليفة ليلي أمر المسلمين بعد أبيه الإمام علي "رضي الله عنه"، مثّلت مرحلة هامة في وصل ما كاد ينقطع من مسيرة تاريخ النظام السياسي الإسلامي، كونه يكمل الثلاثين عاماً فترة الخلافة التي وردت في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "روى سفينة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "الخلافة بعدي ثلاثون عاماً ثم تكون ملكاً أو ملوكاً"، وكان آخر خلافة الحسن "رضي الله عنه" تمام ثلاثين سنة وثلاثة عشر يوماً من أول خلافة أبي بكر الصديق "رضي الله عنه".

وعن الملك العضوض يقول الأستاذ أحمد أمين: "وبمعاوية انتقل الأمر من خلافة إلى ملك عضوض. والفرق بينهما (الخلافة والملك العضوض) أن الخلافة أساسها اقتضاء أثر الرسول (صلى الله عليه وسلم) والاعتماد في حل المشاكل على شورى أهل الحل والعقد واختيار الخليفة منهم حسب ما يرون أنه الأصلح. أما الملك فيشبه الملوك الأقدمين من فرس وروم، واستبداد بالرأي وقصر الخلافة على الأبناء أو الأقرباء ولو لم يكونوا صالحين لذلك وهذا كله ما فعله معاوية" رضي الله عنه<sup>١</sup>

واستناداً لما ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "الخلافة ثلاثون عاماً ثم يكون بعد ذلك الملك"<sup>٢</sup> فمن الناحية الزمنية فخلافته "رضي الله عنه" تدخل ضمن الإطار الزمني للخلافة الراشدة وهو ثلاثون عاماً، ومن هذه الناحية يعتبر الحسن "رضي الله عنه" الخامس في ترتيب الخلفاء الراشدين الأربعة، ولكن كونه خليفة راشداً فهو أمر يحتاج إلى دقة وتحري في البحث والاستقصاء. فالحسن بن علي "رضي الله عنه" إذا جاز التعبير هو الواسلة الفاصلة بين عصرين، عصر الخلفاء الراشدين وعصر الخلفاء

١- ينظر: أحمد أمين. يوم الإسلام. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية (د.ت)، ص ٦٦/٦٧.

٢- هذا الحديث أورده ابن حنبل في المسند وكذلك في فضائل الصحابة. أنظر: ابن حنبل. الفتح الرباني، ج ٢٢، ص ١٢، وفضائل الصحابة، ج ٢، ص ٦٠١.

الأمويين، الواصلة التي وصل بها المسلمون ما تبقى من زمن الرّاشدين قبل أن يصير إلى الأمويين.

ومع التسليم باكتمال مدة الخلافة الرّاشدة بستة أشهر الحسن "رضي الله عنه" فإن دراسة خلافته "رضي الله عنه" تستمد أهميتها من ناحية أن الخلافة لم تنتقل إلى سيدنا معاوية "رضي الله عنه" مباشرة بعد اغتيال سيدنا علي "رضي الله عنه"، وإنما على إثر الصلح الذي تم الذي بينه وبين معاوية والذي نجح في امتصاص كثير من الغضب والغبن اللذان نجمتا عن اغتيال الإمام علي "رضي الله عنه"، وذلك بتهديته بؤر الاحتقان ونزعه فتيل الفتنة الذي كاد أن ينفجر، ولذلك فإن الحسن "رضي الله عنه" يمثل واسطة عقد بين عهدين وخليفة بين خلاقتين يكمل ما سبق ويوصل ما لحق، فأجل بذلك ظهور نزاع مبكر حول الخلافة لو قدر له أن يبدأ لما استطاع أحد التحكم في خط سيره أو التمكن من السيطرة عليه أو التنبؤ بما سيترتب عليه من نتائج.

### ترجمة الحسن "رضي الله عنه":

هو أبو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب "رضي الله عنه"، أمه فاطمة صلوات الله عليها بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وُلد "رضي الله عنه" في المدينة، النصف من رمضان سنة ثلاث من الهجرة، وقيل في شعبان منها. سمّاها النبي "صلى الله عليه وسلم" الحسن، وعق عنه يوم سابعه، وحلق شعره. كان شبيهاً بالنبي "صلى الله عليه وسلم"، وفي ذلك أخرج البخاري عن أنس قال: لم يكن أحد أشبه بالنبي "صلى الله عليه وسلم" من الحسن بن علي. كان له "رضي الله عنه" مناقب كثيرة، سيداً، حليماً، ذا سكينة ووقار وحشمة، جواداً ممدوحاً، يكره الفتن والسيف، تزوج كثيراً، وكان يجيز الرجل الواحد بمائة ألف<sup>١</sup>.

كان أبيض اللون مشرباً بحمرة أدعج العينين، سهل الحديث، كث اللحية، جعد الشعر، ذا وفرة، حسن البدن، بعيد ما بين المنكبين، ليس بالطويل وليس بالقصير، وعن أخلاقه قال ابن الزبير: والله ما قامت النساء عن مثل الحسن بن علي. وقال محمد

١- أنظر: الزبيدي: الإمام أحمد بن عبد اللطيف. مختصر صحيح الإمام البخاري المسمى التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح. الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، ص ٤١٠، حديث رقم ١٥٤٨. والإمام السيوطي. تاريخ الخلفاء، ص ٢٠٥-٢١٢.

بن اسحق: ما بلغ أحد من الشرف بعد الرسول " صلى الله عليه وسلم " ما بلغه الحسن بن علي. وكان الحسن "رضي الله عنه" كريما يجيب السائل. قال:

نحن أناس سؤالنا خضل      يرفع فيه الرجاء والأمل  
تجود قبل السؤال أنفسنا      خوفا على ماء وجه من يسأل<sup>١</sup>

هذا هو السيد سيدنا الحسن سبط سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين".<sup>٢</sup>

وتلك هي صفاته التي قل أن اجتمعت لغيره في ذلك الوقت الذي تفرق أمر الناس وصاروا طرائق شتى فكان هو الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وأرضاهما، فيه حلم وأناة وفي الناس رهق وتعب، وفيه سماحة وسؤدد، وبما كان له من شرف لم يبلغه بعد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد سواء تشرف به الحكم فأتته الخلافة طائفة وهو عنها راغب زاهد، وتشرف به من تبقى خيار الناس وعامتهم وخاصتهم فاجتمعوا حولهم ليجمعهم بعد أن فرقت بينهم الحادثات وباعدت بينهم المسافات لكثرة ما نشب بينهم من خلافات، فوجدوا ضالتهم المنشودة ليخرجهم مما هم فيه فبايعوه خليفة ولم يخب ظنه فيهم ولم يخيب ظنهم فيه، فنجوا بالسفينة من الغرق وأوصلها إلى البر بعد أن كادت تعصف بها أمواج الزمن الخلافية العاتية، فأعاد إلى الناس سيرة عطرة من سيرة السابقين، الرسول صلى الله عليه والخلفاء الراشدين وصحبه الميامين الطاهرين.

بُوع له يوم مات أبوه "رضي الله عنه"، أقام بالكوفة إلي شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين. قتل قاتل والده عبد الرحمن بن ملجم، ثم سار إلى معاوية "رضي الله عنه" فالتقيا بمسكن<sup>٣</sup> من أرض الكوفة، فاصطلحا وسلّم إليه الأمر وبايعه لخمس بقين من شهر ربيع الأول، ويقال أنه أعطاه خمسة آلاف درهم ورجع إلى المدينة، وقال قوم أنه صالحه بأذرع في جمادى الأولى وأخذ مائة ألف دينار، روى ذلك كله الدولابي.<sup>٤</sup>

١- انظر: <http://www.geocities.com/e-sohel/tareekh>

٢- أخرجه البخاري عن أبي بكرة

٣- مسكن: موضع قريب من أذان على نهر دجيل. راجع: الذهبي. تاريخ الإسلام (عهد معاوية بن أبي سفيان)، ص ٥٢.

٤- ابن خلكان. وفيات الأعيان، مج ٢، ص ٦٦.

فبعد اغتيال سيدنا علي "رضي الله عنه" بايع أهل العراق الحسن بن علي بالخلافة في شهر رمضان ٤٠ هـ، وكان أول من بايعه قيس بن سعد الذي بايعه على كتاب الله "عز وجل" وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ثم بايعه الناس بعد ذلك. وكانت بيعته في اليوم الذي قتل فيه أبوه "رضي الله عنه"، وكان أول شئ فعله الحسن بعد توليه الخلافة، هو خروجه بالناس إلى المدائن<sup>١</sup> وبعثه قيس بن سعد الذي كان صاحب شرطة الكوفة لسيدنا علي "رضي الله عنه" في مقدمته لملاقاة معاوية في اثني عشر ألفاً في رواية، وأربعين ألفاً في رواية أخرى. وأقبل معاوية في أهل الشام حتى نزل مسكن.<sup>٢</sup>

إذن الحرب واقعة لا محالة طالما أن الجيوش معبأة للقتال متحفزة مستعدة والمشهد لا يدعو إلى الاطمئنان، لكن ألا يكفي المسلمين ما جرّته عليهم الحرب التي كان سبباً فيها الفتنة التي أودت بحياة الخليفة الراشد عثمان "رضي الله عنه"، والتي كان سبباً فيها أيضاً الصراع الذي دار بين سيدنا علي وسيدنا معاوية، والذي كانت نتيجته إزهاق أرواح مسلمة كان المسلمون في أمس الحاجة لها لنشر الإسلام خارج دائرته الجغرافية الضيقة وتوسيع رقعته، ثم لمصلحة من يقتل المسلم أخاه المسلم؟ أما أن لصوت العقل أن يعلو على صوت العاطفة؟ أما أن لدماء المسلمين أن تحقن ولأرواحهم أن تصان وتحفظ؟ ألم تحن ساعة المصالحة بعد؟

وإثر بيعته كتب إليه ابن عباس "رضي الله عنه" يقول: "إن الناس قد ولوك أمرهم بعد علي، فاشدد عن يمينك واجاهد عدوك"، وبايعه الراغبون من أهل العراق والحجاز واليمن وفارس. وجاء في خطابه بعد البيعة: "نحن حزب الله الغالبون. وعشرة رسول الله الأقربون. وأهل بيته الطيبون الطاهرون. فأطيعونا فإن طاعتنا مفروضة، إذا كانت بطاعة الله ورسوله مقرونة".<sup>٣</sup>

١- المدائن على سبعة فراسخ أسفل من بغداد، على جانبي دجلة. كانت تتألف من سبع مدن ذات أسماء معروفة على اختلاف في قراءتها. وكانت في القرن الرابع الهجري بلدة صغيرة أهلة ذات مسجد جامع عامر بني في زمن الفتح الإسلامي، وبالقرب منه ضريح سلمان الفارسي عليه السلام أشهر صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت أسواقها من الأجر، عامرة. انظر: كي لسترنج. بلدان الخلافة الراشدة.

٢- محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ٤، ص ٨٤.

٣- الإمام السيوطي. مصدر سابق.

والمعلوم أنه عندما ضرب أمير المؤمنين علي بالسيف، دخل عليه جندب بن عبد الله فقال له: "يا أمير المؤمنين إن فقدانك ولا نفقدك فتبايع الحسن؟ قال: ما أمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر.. ثم قام أهل الكوفة وبايعوا الحسن بعد مقتل أبيه باجتهاد منهم دون وصية من أحد، وكان أول من بايعه قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم".<sup>١</sup>

وبيع لسيدنا معاوية "رضي الله عنه" بالخلافة بالشام والعراق وسائر بلاد الإسلام وذلك عام ٤١ هـ. وعن هذا روى الحسن البصري: فقال الحسن بن علي "رضي الله عنه" إلى الصلح وخطب الناس وخلق نفسه من الأمر وسلّمه إلى سيدنا معاوية وذلك سنة إحدى وأربعين فبايعه الأمراء من الجيشين واستقلّ بأعباء الأمة فسمى ذلك عام الجماعة وذلك في شهر ربيع الآخر أو جمادى الآخرة سنة إحدى وأربعين.<sup>٢</sup>

وكانت خلافته ستة أشهر وخمسة أيام في رواية وسبعة أشهر وسبعة أيام في رواية أخرى، روى الشعبي<sup>٣</sup> قال: "أنا شهدت خطبة الحسن" - يعني حين سلّم الأمر إلى معاوية: قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أما بعد، إن أكيس النقي وأحمق الحمق الفجور، وإن هذا الأمر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية إنما هو حق لأمري كان أحق بحقه مني أو حق لي تركته لمعاوية إرادة لصالح الأمة وحقاً لدمائهم، وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين".<sup>٤</sup>

### الميل إلى الصلح:

ماذا بين الحسن ومعاوية رض الله عنهما؟ سؤال مشروع قد يؤدي إلى الدخول في المحظور لذا لا نملك إلا أن نقول: بينهما خير فيه خير المسلمين إن شاء الله. فمعاوية رضي الله عنه الذي حارب علياً "رضي الله عنه" وضع أنه لم يكن مستعداً للدخول في

١- ابن الجوزي: المنتظم في تواريخ الملوك والأمم، ج ٢، ص ٤٠٦. وأنظر: عبد الباقي كبيب: الخلافة الراشدة، ص ٣٦٠.

٢- ابن كثير، أبو الفدا الحافظ بن كثير الدمشقي: البداية والنهاية، ج ٦.

٣- كان الشعبي بالكوفة في مقام الحسن البصري بالبصرة واعتبره الإمام الزهري من العلماء الأربعة. كان رواية، حاداً، محدثاً، فصيحاً، حكيماً، لبقاً، حسن المعاشرة. وكان واحداً من الفضلاء الكثيرين الذين ضاقوا ذرعاً بالحجاج وبني أمية. مصطفى الشكعة: معالم الحضارة الإسلامية، ص ١٠٢.

٤- ابن خلكان: وفيات الأعيان مج ٢ ص ٦٦.



حرب جديدة مع ابنه الحسن خليفة المسلمين، فميله إلى السلم غلب على الحرب وقد كان في معيته جيوش من أهل الشام جاهزة للقتال وإلى جانبه عقل حربي مجرب مدبر مهندس صفين الصحابي الداهية عمرو بن العاص، وظروف مواتية، ورغم هذا فلا شيء غير الصلح، فالصلح خير من الحرب والذاهب إلى الصلح خير من الذاهب إلى الحرب ولا خير في حرب بين المسلمين.

تذهب روايتان مختلفتان إلى أن كلا من سيدنا معاوية وسيدنا الحسن قد أثر الصلح على القتال. ففي الرواية الأولى نقرأ أن معاوية قد عبأ جيوشه لما بلغه أن الحسن قد عبأ جيوشه واستعد لقتاله غير أن معاوية فعل ذلك من باب الاحتياط، وأنه قد أضحى في حالة قلق شديد لما بدا له أن صفين ثانية تلوح في الأفق، وجراح صفين الأولى في أجساد المسلمين لم تتدمل، وتمنى على الحسن بن علي "رضي الله عنه" ألا يسمح بتجدد القتال بين المسلمين وأن يجعله الله سبباً في حقن دمائهم.

قال البخاري في كتاب الصلح: حدثنا عبد الله بن محمد ثنا سفيان عن أبي موسى قال: سمعت الحسن يقول: «استقبل والله الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص: إني لأرى كتائب لا تُولي حتى تقتل أقرانها، فقال معاوية - وكان والله خير الرجلين - : إن قتل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء من لي بأمور الناس؟ من لي بضعفتهم؟ من لي بنسائهم، فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس - عبد الرحمن بن سمرة، وعبد الله بن عامر، قال اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه وقولا له واطلبا إليه، فأتياه فدخلوا عليه فتكلما وقالوا له وطلبا إليه<sup>١</sup>.

وفي هذا أخرج البخاري "رحمه الله" عن أبي موسى قال سمعت الحسن يقول: "استقبل والله الحسن بن علي معاوية بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص الذي ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم، قيادة غزوة ذات السلاسل، ثم استعمله على عمان وظل عليها حتى وفاة المصطفى صلى الله عليه وسلم والذي كان من أمراء الأجناد في الجهاد بالشام في زمن عمر، وافتتح قنسرين وصالح أهل حلب ومنبج

١- ابن كثير: البداية والنهاية، مج ٨ ط ١، ١٩٩٧ م - ١٤١٧ هـ، ص ١٤

وأنطاكية وولاه عمر فلسطين<sup>١</sup>: 'إني أرى كتائب لا تولى حتى تقتل أقرانها. فقال له معاوية - وكان والله خير الرجلين- أي عمرو، إن قتل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، فمن لي بأمور الناس، من لي بنسائهم، من لي بضيعتهم، فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس- عبد الله بن سمرة وعبد الله بن عامر بن كريز- فقال: أذهب إلى هذا الرجل فاعرض عليه واطلب إليه.

فأتياه فدخل عليه فتكلما وقالاه وطلبا إليه، فقال لهما الحسن بن علي: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال، وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها. قالوا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا، ويطلب إليك ويسألك. قال: فمن لي بهذا؟ قالوا: نحن لك به. فما سألهم شيئاً إلا قالوا: نحن لك به. فصالح. فقال الحسن: ولقد سمعت أبا بكر يقول: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر- والحسن بن علي إلى جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: "أن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين".<sup>٢</sup>

يدل ظاهر الرواية على أن سيدنا معاوية هو الذي بادر إلى طلب الصلح من سيدنا الحسن، وأن سيدنا الحسن "رضي الله عنه" كان يرغب في الصلح أيضاً ولكنه كان يبحث عن ضامن لما يأتي من قبل معاوية "رضي الله عنه" فلما تبين له صدق القرشيين قبل الصلح، وهو ما يشير إلى أن سيدنا الحسن لم يكن على درجة من الاطمئنان لسيدنا معاوية تجعله يقبل بما يصدر عنه، وهو أمر منطقي يعكس ما وصلت إليه الأوضاع من تردي في ذلك الوقت.

١- عمرو بن العاص: هو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم القرشي السهمي (أبو عبد الله) أسلم سنة ثمانية للهجرة مع خالد بن الوليد في العام الثامن للهجرة النبوية وكان التجاشي (ملك الحبشة) سبياً في إسلامه، ولما أسلم كان النبي صلى الله عليه وسلم يقربه ويدنيه معرفته وشجاعته، وكان شديد الحياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يرفع طرفه إليه، يدعى بفاتح مصر لأنه كان سبياً في ترغيب سكان مصر وأفريقية للدخول في الإسلام وتم له ذلك في خلافة عمر بن الخطاب ؓ، الذي ولاه كذلك قيادة جيوش الفتح في فلسطين والأردن بعد موت يزيد بن أبي سفيان، ذهب بعد مقتل سيدنا عثمان ؓ إلى معاوية ؓ، بالشام يدبر معه أمره في الحرب وشهد معه صفين ضد سيدنا علي كرم الله وجهه، كان من أبطال قريش وأحد دهاة الرأي، توفي بمصر في سنة ٤٣هـ/٦٦٤م، عن عمر بلغ ٩٣ سنة. أنظر: ابن كثير. البداية والنهاية، ج٨، وابن حجر. الإصابة، ج٣، ج٤، وخالد محمد خالد. رجال حول الرسول صلى الله عليه وسلم.

٢- أخرجه البخاري عن أبي بكر- الإمام السيوطي، تاريخ الخلفاء ص ٢٠٦.

أما الرواية الثانية فمفادها أن سيدنا الحسن هو الذي بادر إلى طلب الصلح من سيدنا معاوية، تقول الرواية: "ولما رأى الحسن، فشل أصحابه خاف تفرق أصحابه عنه لذا أرسل إلى معاوية يطلب الصلح على أن يفضل معاوية بني هاشم في العطاء ويؤمن العبد والحر. فأرسل عبد الله بن عامر بذلك إلى معاوية وقد أرسله معاوية إلى الحسن بن علي من أجل الصلح فوافق على كل ذلك معاوية بن أبي سفيان، وأرسل الحسن إلى قيس بن سعد يعلمه بالصلح مع معاوية وأمره بتسليم الأمر إلى معاوية والانصراف إلى المدائن، فخطب قيس بن سعد في الناس فقال: "أيها الناس اختاروا أحد الأمرين إما القتال بلا إمام أو الدخول في طاعة معاوية". فاختاروا الدخول في طاعة معاوية.<sup>١</sup>

وقد جاء في الكامل في التاريخ لابن الأثير أن الحسن سلم الأمر إلى معاوية، لأنه لما راسله معاوية في تسليم الخلافة إليه خطب الناس، فحمد الله وأثنى عليه وقال: إنا والله ما يشينا عن أهل الشام شك ولا ندم، وإنما كنا نقاتل أهل الشام بالسلامة والصبر فشبيت السلامة بالعداوة، والصبر بالجزع، وكنتم في مسيركم إلى صفين ودينكم أمام دنياكم، وأصبحتم اليوم وديناكم أمام دينكم، ألا وقد أصبحتم بين قتيلين: قتيل بصفين تبكون له، وقتيل بالنهروان تطلبون بثأره، وأما الباقي فخاذل، وأما الباكي فثائر، ألا وإن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة، فإن أردتم الموت رددناه عليه وحاكمناه إلى الله عز وجل، بظبي السيوف، وإن أردتم الحياة قبلناه وأخذنا لكم الرضي. فناداه الناس من كل جانب: البقية البقية! وأمضى الصلح.<sup>٢</sup>

ويتضح من خطبة الحسن "رضي الله عنه" مبلغ حرصه على حقن دماء المسلمين الذين من أجلهم ترك حقه في الخلافة "رضي الله عنه"، لأجل صلاح الأمة الإسلامية وتوحيدها بعد ما أصابها من تمزق وشتات جراء ما حل بها من فتن ونكبات، والترك مقتدرين بالزهد في الحكم أكثر من اقتترانه بالتنازل عنه، ولذلك فلا صوب القول أن الحسن ترك الأمر لمعاوية ولم يتنازل عنه، وأنه مع ذلك لم يكن يدري إن كان في ذلك فتنة وتمتع بأمور الدنيا وبُعدا عن أمور الدين.

١- الدينوري: الأخبار الطوال، ص ٢١٨

٢- ابن الأثير عز الدين بن الحسن الشيباني: الكامل في التاريخ، المجلد الثالث، طبعة بيروت ١٩٦٥م - ١٣٨٥هـ صفحة ٤٠٦

والذي لا شك فيه أن الحسن رضي الله عنه لم يكن يريد الخلافة بل هي التي كانت تريده ولذلك سعت إليه وغيرها يسعى إليها، ولذلك تركها ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى حقنا لدماء المسلمين كما ورد في تاريخ الخلفاء للسيوطي حيث أخرج الحاكم عن جبير بن نفير قوله: قلت للحسن: إن الناس يقولون: إنك تريد الخلافة فقال: قد كان جماجم العرب في يدي يحاربون من حاربت ويسالمون من سلمت فتركها ابتغاء وجه الله وحقق دماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم ابتزها بأتياس من أهل الحجاز. وقد استدل البلقيني بنزول الحسن عن الخلافة، التي هي أعظم المناصب، على جواز النزول عن الوظائف<sup>١</sup>.

وقول الحسن هذا رضي الله عنه يؤكد تأكيداً قاطعاً أنه تنازل طوعاً عن الخلافة لمعاوية رضي الله عنه وقد كان باستطاعته التمسك بها، وأن كلا الرجلين كان يسعى للوصول إلى هدف واحد وهو نبذ الحرب وعدم العودة إلى مربع الصراع حول الخلافة، هذا من أجل التنازل عن السلطة وذلك من أجل الوصول إليها عبر التداول السلمي لها، إعمالاً لروح الجماعة التي افتقدها المسلمون منذ فتنة مقتل عثمان رضي الله عنه.

## نص الصلح

بسم الله الرحمن الرحيم

"هذا ما صالح عليه الحسن بن علي بن أبي طالب، معاوية بن أبي سفيان. صالحه على أن يسلم إليه ولاية أمر المسلمين على أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الراشدين الصالحين. وليس لمعاوية بن أبي سفيان أن يعهد من بعده عهداً. بل يكون الأمر من بعده شورى بين المسلمين. وعلى أن الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم. وعلى أن أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم. وعلى معاوية بن أبي سفيان بذلك عهد الله وميثاقه. وما أخذ الله من مكر أحد من خلفه بالوفاء. وبما أعطى الله من نفسه، وعلى أن لا

١- الإمام السيوطي: مصدر سابق، ص ١٤٤.

يبقى للحسن بن علي ولا أخيه الحسين ولا لأحد من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم غائلة سرا ولا جهرا. ولا يخيف أحدا منهم في أفق من الآفاق. يشهد عليه فلان ابن فلان بذلك. وكفى بالله شهيدا<sup>١</sup>.

فالدخول في طاعة معاوية كما يبدو لنا يجب ألا يفهم أنه تخلي من جانب الذين قاتلوا سيدنا معاوية عن المبادئ التي قاتلوا من أجلها، وإنما يدل على وجود مسلمين مخلصين يرون إلى المحافظة على مكانة الخلافة قبل الخليفة الذي لا يحتاجون إلى إطالة النظر في أمره لسابق عهدهم ومعرفتهم به. وبالنظر إلى الروایتين نرجح أن سيدنا معاوية "رضي الله عنه" هو الذي طلب الصلح من سيدنا الحسن بن علي "رضي الله عنه" وأن سيدنا الحسن رضي الله عنه أتم هذا الصلح لأنه كان راغبا فيه ساعيا له مخلصا في الوصول إليه.

ورغم أن ظاهر الرواية يدل على أن سيدنا الحسن قبل الصلح مضطرا غير أنه يصعب الجزم بصحته، والدليل على عدم صحته ما رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي بسنده عن الحسن "رضي الله عنه" أنه قال: "قد كانت جماجم العرب في يدي يحاربون من حاربت ويسالمون من سألت، تركتها ابتغاء وجه الله تعالى وحقن دماء أمة محمد صلى الله عليه وسلم..."<sup>٢</sup>.

فالواقع يشهد أن سيدنا الحسن "رضي الله عنه" لو كان مضطرا لفعل شيء لكان مضطرا لقتال سيدنا معاوية وليس لعقد الصلح معه، ولكن لأن سماحة الحسن تجاوزت كل الآلام التي كان يشعر بها كل مسلم حينذاك، فقد جعلته يترفع عن النزعات الشخصية من أجل الإبقاء على الروابط الإسلامية التي ترى الصلح خير حافظ لدماء المسلمين وأرواحهم. وهنا لابد لنا من أن نفرق بين القبول والحذر، وبين الممانعة والتردد اللذين يكون إتياعهما واجبا تفرضه ظروف المرحلة على أي طرف يكون في خلاف مع طرف آخر، ناهيك إن كان الطرف الآخر هو سيدنا معاوية بما اتصف به من حلم وأناة وصبر ودهاء وحكمة وحنكة ومرونة ولين ودراية وشدة ومنعة، وهي صفات تنبئ أن الاندفاع في مثل هذه الأمور لا يفيد قدر ما يفيد التروي والحذر.

1- <http://www.geocities.com/e-sohel/tareekh>

٢- الإمام السيوطي: مصدر سابق، ص ٢١٠

فالشاهد أن سيدنا الحسن "رضي الله عنه" كان زاهدا في الخلافة التي كان ينظر إليها بمنظار رجال الجيل في عصره فوجد أن معاوية (رضي الله عنه) كان خيرا لهذا العصر وأقدر منه عليه، ومع معاوية من الأصحاب من يثق بهم ويستطيع أن يشق بهم طريقه، وقد رأى الحسن أنه ينبغي له ألا يثق بأصحابه فائز أن يترك الخلافة لغيره على أن يبغى بهم، وهو يكرههم، فكان في نفس الحسن أن يسلم الأمر لمعاوية ولم يكن في ذهنه أن يقاتل وبدا ذلك واضحا جليا فيما اشترطه على أهل العراق من شروط عند مبايعتهم له بالخلافة بمسألة من سالم ومحاربة من حارب<sup>١</sup>.

ولا ينبغي أن يفهم من ظاهر هذه الرواية أن الحسن قبل الصلح لما رأى تفرق أصحابه عنه: "ولما بلغ الحسن خبر نزول معاوية الأنبار في طريقه إلى المدائن، خرج في أثني عشر ألفا يقودهم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري متجها إلى المدائن، فلما وصل سابط رأى من أتباعه زهدا وانصرافا عن الحرب<sup>٢</sup>، واجتماع أصحاب معاوية عليه، بل يجب أن نضع في الحسبان أن من ظل مع الحسن وهو شديد الولاء لأبيه الإمام علي كان مستعدا لقتال معاوية وجيوشه رغم الفارق العددي بين الفريقين، ولكنه مع هذا كان زاهدا في الحرب التي لم تؤد إلا إلى الفرقة بين المسلمين فغلب المصلحة وهي مصلحة المسلمين، ولعل هذا انصب في مصلحة الجماعة الإسلامية التي أصبح الحسن رضي الله عنه مسئولا أمام الله سبحانه وتعالى عن وحدتها، فأثر الصلح على القتال: "فأعلن الحسن أنه لا يريد أن يحمل الناس على ما يكرهون، وأن الجماعة خير من الفرقة"<sup>٣</sup>.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل بوضوح على أن الحسن كان يبغى الصلح على القتال وقد كان على أتم استعداد له حيث كان معه جيش يتكون من أربعين ألفا مصممين على القتال، متشددين فيه أكثر من ذي قبل، برئاسة قيس بن سعد وابن عباس<sup>٤</sup>.

١- يوسف العش: الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان. دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٨، ص، ١٢٦ راجع أيضا، الطبري، ٤: ١٢٦، ابن الأثير، ج ٣ ص ٤٠٢.

٢- ذكر اليعقوبي أن معاوية نجح في إرشاء عبيد الله بن عباس فأنضم إليه في نهاية آلاف من أنصار علي. اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب. تاريخ اليعقوبي، ج ١، طبعة النجف، ١٣٨٥هـ، طبعة دار صادر بيروت، ص ٢١٤.

٣- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية. مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، ١٩٩٢، ص ٣٣٧.

٤- يوسف العش: مرجع سابق، ص ١٢٧.

وحتى ميل الحسن إلى الصلح وحرصه عليه وخلوص نيته فيه لم يشفع له عند بعض المؤرخين الذين اتهموه بأنه لم يصلح إلا مكرها بعد أن ألقى عليه معول وهو في خيمته فدفعه ذلك إلى كرهه إلى القتال، وهو أمر مجاف للحقيقة التي تقول أن المعول ألقى في ظروف مجهولة بعد أن شرع سيدنا الحسن فعليا في مفاوضات معاوية وإن الحسن رضي الله عنه أراد أن يوقف القتال، وأرسل إلى معاوية، وكان قد اتجه إلى العراق، يطلب إليه إيقاف القتال، كما أن معاوية كان في نفسه الأمر ذاته<sup>١</sup>.

وهل يعقل التسليم بأن حادثة إلقاء المعول كانت السبب المباشر في إسراع الحسن رضي الله عنه في طلب الصلح مع معاوية رضي الله عنه؟ ألا يقلل تفسير الحادثة بهذه الطريقة من تلاقي الإرادة عند الحسن ومعاوية رضي الله عنهما على عقد الصلح وتجنّب المسلمين الفتنة؟ أليس في ذكر الحادثة بهذه الطريقة فتحا للباب لوصف سيدنا الحسن رضي الله عنه بما لا ينبغي وصفه به؟ ألا يدل هذا على أن سيدنا الحسن كان حريصا على حقن دماء المسلمين ووأد الفتنة في مهدها؟

وليت الأمر انتهى عند ذلك فقد اتهم الحسن رضي الله عنه أيضا بأنه لم يرد الصلح إلا على شرطين، هما إبقاء مال بيت المال معه، وألا يسب أبوه وهو حاضر، ويعلق على هذا الاتهام الدكتور يوسف العشّي بقوله: "والشرط الأول وهو استبقاء خمسة ملايين درهم من بيت المال معه يشين من إنصافه وعدله على ما يظهر، لكننا إذا نظرنا إلى الأمر بمنظار روح ذلك العصر، فإننا نرى أن الحسن كان يرأس أسرة كبيرة، ولهذه الأسرة حقوقها من بيت المال، ووالده علي بن أبي طالب لم يوزع مال بيت المال في عائلته كما ورّعه عمر بن الخطاب فيهم، بل سواهم بالناس الآخرين، وكان في حالة حرب، فكان يوفّر ما في بيت المال للحرب، فكان من حق هذه الأسرة أن تأخذ ما كان من حقها وأجل دفعه لها لظروف خاصة، وليس المال الذي استبقاه الحسن هو لنفسه فحسب، بل له ولأهل بيته ولأصحابه. ونحن نعرف بأن عدد أصحابه كان كبيرا، وأن عودتهم من الحرب وإقامتهم في بيوتهم يكلف الكثير من المال، أفليس حريا بالحسن أن يستبقي هذا المبلغ الذي هو من حق أولئك المحاربين فيوزعه بينهم<sup>٢</sup>؟

١- نفسه:ص١٢٧.

٢- نفسه:ص١٢٧/١٢٨. وابن الأثير: مصدر سابق، ج٣:ص٤٠٥، والسيد عبد العزيز سالم: مرجع سابق:ص٣٣٧.

وما ينبغي النظر إليه هنا هو أن سيدنا الحسن طالب باستبقاء المبلغ للصرف منه على أسرة حرمت من حقها في المال الذي كان يدخره عائلها وهو الخليفة علي رضي الله عنه لمصلحة عامة المسلمين، وبالتالي لم يساوم سيدنا الحسن على المال ولم يجعله شرطاً لإمضاء الصلح فالمال مهما كثر لن يعوض هذه العائلة والمسلمين عن اغتيال الخليفة الرابع، عليه فمن الإنصاف القول بأن سيدنا الحسن كان سيصالح في وجود هذا المال أو عدمه ولكنه طلب هذا المال لأجل الإنفاق منه على أسرته الكبيرة التي كان حقاً في مال بيت المال، ولم يطالب به لمصلحته الشخصية.

هذا فقد توصل الدكتور السيد عبد العزيز سالم في بحثه عن الأسباب التي حملت الحسن على تنازله عن الخلافة رغم اعتراض أخيه الحسين على ذلك، إلى الآتي:

١- أن الحسن كان ينفر من الحرب ويشفق على المسلمين من الفتن الدامية.

٢- أراد الحسن أن يخمد الفتنة الكبرى التي أطاحت بعثمان وعلي.

٣- لم يعد الحسن يثق بأهل الكوفة بعد ما فعلوه بأبيه في موقعة صفين، وبعد أن اتخذوا عن الحسن وكروهوا القتال.<sup>١</sup>

ثم أن الحسن كتب إلى معاوية وقد وافى الأنبار يتنازل له عن الخلافة بشروط منها: أن يعطيه معاوية ما في بيت مال الكوفة وقدره خمسة آلاف ألف، وهو أن يحمل إلى الحسين كل عام ألفي ألف، وأن يترك له خراج دار ابجرد من فارس، وأن يكف عن سب أبيه، فأجابه معاوية إلى شروطه، ولكنه أخل بالشرطين الأخيرين.

وذكر ابن قتيبة أن الحسن اصطالح مع معاوية على أن يظفر معاوية بالإمامة ما كان حياً فإذا مات فالأمر للحسن<sup>٢</sup>. وتم تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية في ٢٥ ربيع الأول سنة ٤١هـ، وقيل في ربيع الآخر، وقيل في جمادى الأولى، في العام الذي سمي بعام الجماعة لاجتماع الأمة على خليفة واحد.<sup>٣</sup>

وكان الحسن "رضي الله عنه" قد سئل بعد أن عاد إلى المدينة عن السبب الذي حمله على التنازل، فقال: "كرهت الدنيا، ورأينا أهل الكوفة قوما لا يثق بهم أحد

١- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الدولة العربية، المرجع السابق، ص ٢٤٠.

٢- الإمام السيوطي: مصدر سابق، ص ١٨٢.

٣- ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار، ٤ أجزاء، القاهرة: ١٩٦٣.



أبداً إلا غلب، ليس أحد منهم يوافق آخر في رأي ولا هوى، مختلفين لانية لهم في خير ولا شر. لقد لقي أبي منهم أموراً عظيماً، فليت شعري لمن يصلحون بعدي، وهي أسرع البلاد خراباً".<sup>١</sup>

وهناك من يعززون تخلي الحسن عن حقه في الخلافة لمعاوية بأنه لم يكن مهيباً لحمل أعبائها، وتفضيله الحياة السهلة، وهنا لا يعتقد السيد عبد العزيز سالم أن رغبة الحسن في الحياة السهلة كانت سبباً في تخليه عن الخلافة، ويرى أنه ورغم أنه كان يكره الفتن والقتال، لكنه كان لا يتردد في حمل السلاح والتعرض للموت إذا ما اقتضى الأمر ذلك، فقد دافع عن عثمان (رضي الله عنه) حتى جرح وتلطخ وجهه بالدماء.<sup>٢</sup>

وقد ساعد سيدنا الحسن "رضي الله عنه" على إتمام الصلح حرص سيدنا معاوية "رضي الله عنه" على الصلح أيضاً فيروى: "إن الحسن أراد أن يوقف القتال، وأرسل إلى معاوية، وكان قد اتجه على العراق، يطلب إليه إيقاف القتال، كما أن معاوية كان في نفسه الأمر ذاته، فتم الاتفاق بين الطرفين".<sup>٣</sup>

وترتب على الصلح الذي تم أن أصبح سيدنا معاوية يلقب بأمير المؤمنين وقد كان بالشام يلقب بالأمير، عندما كان سيدنا علي "رضي الله عنه" يلقب بأمير المؤمنين. ومن ثم ثبتت الخلافة رسمياً لمعاوية بن أبي سفيان لما قام بعقدها له سيدنا الحسن بن علي في العام الذي صار يعرف بعام الجماعة لأن الله جمع فيه شمل المسلمين على خليفة واحد.<sup>٤</sup>

**موت الحسن "رضي الله عنه":**

وعن موته "رضي الله عنه" فالثابت أنه ظل مقيماً بالمدينة المنورة إلى أن مات بها في شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين أو سنة خمسين (وهو الأشبه بالصواب)، وله سبع وأربعون سنة، وصلى عليه سعيد بن العاص أمير المدينة، ودفن بالبقيع، ويقال أنه دُفن

١- ابن الأثير: مصدر سابق، ص ٤٠٧.

٢- السيد عبد العزيز سالم: مرجع سابق، ص ٢٤٠.

٣- يوسف المش: مرجع سابق؛ ص ١٢٧.

٤- أنظر: الإمام الطبري، مصدر سابق، ج ٢، ص ١٦٦، وابن تيمية. الفتاوى، ج ٢٥، ص ٢٥.

مع أمه صلوات الله عليها<sup>١</sup>. وفي تاريخ الخلفاء للإمام السيوطي: "توفي الحسن رضي الله عنه بالمدينة مسموماً، سمته زوجته جعده بنت الأشعث ابن قيس، دس إليها يزيد بن معاوية أن تسمه فيتزوجها، ففعلت، ومكث شهرين وهو مسموم، وإنه ليرفع كل يوم كذا وكذا طست من دم. وكان "رضي الله عنه" يقول: "سقيت السم مراراً ما أصابني ما أصابني هذه المرة". فلما مات الحسن بعثت إلى يزيد تسأله الوفاء بما وعدها، فقال: إنا لم نرضك للحسن أفترضاك لأنفسنا. وجهد به أخوه أن يخبره بمن سقاه، فلم يخبره، وقال: الله أشد نعمة إن كان الذي أظن، وإلا فلا يقتل بي والله برئ<sup>٢</sup>.

وبعد تفضيله "رضي الله عنه" عدم الكشف عن اسم قاتله محتسباً نفسه عند الله سبحانه وتعالى شهيداً، سجل التاريخ القضية ضد مجهول، ليثبت من جديد أن الحسن "رضي الله عنه" قدى نفوس المسلمين بنفسه وكفاهم الفتنة مرتين: الأولى عندما تنازل طوعاً عن الخلافة لسيدنا معاوية "رضي الله عنه". والثانية: عندما لم يفصح عن اسم من سمّه وكان سبباً في موته "رضي الله عنه".

وتذكر الروايات أن مروان بن الحكم لما كتب إلى معاوية بشكاته كتب إليه أن أقبل المطي إليّ بخبر الحسن، ولما بلغه موته سمع تكبيراً من الحضر، فكبر أهل الشام لذلك التكبير فقالت فاختة زوجة معاوية: أقر الله عينك يا أمير المؤمنين، ما الذي كبرت له؟ قال: مات الحسن، قالت: أعلى موت ابن فاطمة تُكبر؟ قال: والله ما كبرت شماتة بموته ولكن استراح قلبي، وكان ابن عباس بالشام، فدخل عليه فقال: يا ابن عباس، هل تدري ما حدث في أهل بيتك؟ قال: لا أدري ما حدث إلا أنني أراك مستبشراً وقد بلغني تكبيرك وسجودك، قال مات الحسن، قال: إنا لله، يرحم الله أبا محمد، ثلاثاً، ثم قال: والله يا معاوية لا تسد حفرتك ولا يزيد نقص يومه في يومك، وإن كنا أصبنا بالحسن لقد أصبنا بإمام المتقين وخاتم النبيين، فسكن الله تلك العبرة وجبر تلك المصيبة وكان الله الخلف علينا من بعده<sup>٣</sup>.

١- القضاعي: تاريخ القضاعي، ص ٣٢١

٢- الإمام السيوطي: مصدر سابق، ص ٢١٠، والمسقلاني: الإصابة.

٣- ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٦٦/٦٧

فلماذا كان معاوية "رضي الله عنه" مهتماً بأخبار مرض الحسن، وما حقيقة موت الحسن "رضي الله عنه" مسموماً؟

بالنظر إلى الظروف المحيطة بخلافة الحسن والطريقة التي مات بها فمن غير المستبعد أن يكون الحسن ﷺ مات مسموماً على يد زوجته، وأن يكون يزيد بن معاوية قد أوعز لها بذلك فلما نال غايته تنكّر لها وسخر منها، ولكن المستغرب "إن صحت الرواية" هو أن يكبر معاوية على موت الحسن الذي لولا تنازله عن الخلافة لما صارت إلى معاوية رغم أنه كان الأقرب إليها والأجدر بها بحسب مقاييس الإدارة والحكم التي ينبغي أن تتوفر في شخصية من يتولى الحكم، غير أنه يمكننا فهم ما جرى إذا علمنا أن مما تصالح عليه الحسن ومعاوية رضي الله عنهما كما ذكرت بعض الروايات، أن يصير أمر الخلافة بعد معاوية مرة أخرى إلى الحسن أو إلى واحد من عامة المسلمين، في حالة موت معاوية قبل الحسن، ولكن شاءت إرادة الله أن يمضي الحسن إلى جوار ربه قبل معاوية، ومن ثم صفا الجو لمعاوية، فربما كان هذا سبباً للتكبير الذي صدر عن معاوية "رضي الله عنه" إذا صحت الرواية على الوجه الذي ذكرت به، ومهما يكن فإن موت الحسن "رضي الله عنه" قد أجّل عودة الصراع حول الخلافة ولو إلى حين.

ولم ينس الحسن "رضي الله عنه" وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن يلقي نظرة وداع على ملكوت ربه عسى أن يكون بها مقبولا عند المولى عز وجل. وقيل: لما احتضر الحسن "رضي الله عنه" قال: أخرجوني إلى الصحراء لعلّي أنظر في ملكوت السموات، يعني الآيات، فلما أخرج قال: "اللهم إني احتسب نفسي عندك فإنها أعز الأنفس علي، فكان مما صنع الله له أنه احتسب نفسه".<sup>١</sup>

والجدير بالذكر أن الحسن "رضي الله عنه" كان قد أوصى قبل موته لأخيه الإمام الحسين "رضي الله عنه" بقوله: "إذا أنا مت فادفني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن وجدت إلى ذلك سبيلاً، وإن منعوك فادفني ببقيع الغرقد". فلبس الحسين ومواليه السلاح وخرجوا ليدفنوه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج مروان بن الحكم في بني أمية فمنعوه من ذلك.<sup>٢</sup>

١- ابن خلكان وفيات الأعيان، المصدر السابق، ص ٦٧

٢- نفسه، ص ٦٧

ولم يفت على الحسن وهو يلفظ آخر أنفاسه وجود بروحه أن يقطع الطريق أمام دعاة الفتنة ورعاتها عندما أوصى بأن يدفن مع جده رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن حال بنو أمية دون ذلك فليدفن في بقيع الغرقد، وكأنه يعلم أن بني أمية سيفعلون وقد حدث. ولا ينبغي أن يصرفنا ما حدث عن الالتفات إلى مغزى تنازل الحسن "رضي الله عنه" عن الخلافة صلحا لمعاوية "رضي الله عنه" فنقول اعتقاداً، أن الحسن "رضي الله عنه" بتنازله صلحا عن الخلافة لمعاوية "رضي الله عنه"، أضاف بعداً جديداً لمفهوم الحاكمية في الإسلام، وأن خلافته كانت فترة راحة واستجمام للمسلمين بعد صراع طويل حول السلطة، نتج عنها بروز فكر إسلامي جديد يقوم على البعد عن الفتنة وحقق دماء المسلمين وأعادتهم إلى مربع الجماعة، ومن ثمّ كان اجتماعهم على معاوية "رضي الله عنه" في عام الجماعة.

ورغم ما قد يفهم ويستشف من ظاهر الرواية فيما حدث للحسن "رضي الله عنه" إلا أننا نستبعد أي دور لمعاوية "رضي الله عنه" في سمّ الحسن "رضي الله عنه" وموته إذ لا يعقل أن يكون سيدنا معاوية على تلك الدرجة من خيانة العهود والمواثيق وقد كان "رضي الله عنه" يكتب الوحي بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحاشا لمعاوية مهما كانت نزعته نحو الحكم وطمعه في أن يكون حاكماً أن يفعل ذلك بالحسن سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ويمكن قبول الرواية بهذا الشكل إذا حدث ذلك قبل إتمام الصلح؛ وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف والطبراني في الكبير عن عبد الملك ابن عمير قال: قال معاوية: ما زلت أطمع في الخلافة منذ قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا ملكت فأحسن"<sup>١</sup> أن يكون كما وصفه أعداؤه من الرافضة والشيعة وغيرهم.

لذا كان الحال في خلافة الحسن الانتقالية القصيرة ونسبة لما سادها من مناخ روحي فترت فيه إلى حد ما وتيرة النزاعات السياسية، أشبه بما كان عليه الحال في عهود الخلفاء الراشدين الذين ساروا على نهج معلّمهم ونبيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك حرصاً منه "رضي الله عنه" على المحافظة على ما تبقى من الولاء الروحي لمن تبقى من الجيل الصالح من المسلمين، وقد بدأ ذلك جلياً في خطبته لما تنازل عن

١- الإمام السيوطي: مصدر سابق، ص ٢١٢.

الخلافة لسيدنا معاوية بن أبي سفيان "رضي الله عنه" بقوله: "أيها الناس أن الله هداكم بأولنا، وحقق دماءكم بأخرنا، وقد سالت معاوية، وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين".<sup>١</sup>

وبذلك انتهى عهد الخلافة الراشدة وانتقلت عاصمة الدولة الإسلامية إلى دمشق بالشام وبدأ الملك في الدولة الإسلامية، وعليه إذا جمعنا مدة خلافة سيدنا أبي بكر الصديق، وسيدنا عمر بن الخطاب، وسيدنا عثمان بن عفان وسيدنا علي بن أبي طالب، وسيدنا الحسن بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعاً وجدناها ثلاثين عاماً.

#### خاتمة:

فسيدنا الحسن بن علي "رضي الله عنه" كان فيما جرى له منذ مبايعته خليفة مروراً بصلحه مع معاوية وتنازله عن الخلافة وانتهاء بموته، كان كمن مال عليه صرح ضخم شيد بإحكام، استغرق بناؤه تسعاً وعشرين سنة ونيف، وشارك في بنائه الخلفاء الأربعة الراشدون ومن معهم من كبار الصحابة وأبناء الصحابة ومن عايشهم وعاش معهم وكان لزاماً عليه "رضي الله عنه"، ألا يدعه يسقط، لأن سقوطه يعني سقوط عصر اتسع لدخول جميع المسلمين بمختلف عناصرهم، ولم تستطع القضاء عليه الفتن والمؤامرات والدسائس التي حيكت ضد الخلافة والخلفاء، ويعني كذلك طي صفحة من أنصع صفحات التاريخ الإسلامي، فكان عليه إذن البحث عمن يستطيع القيام بترميم ما تبقى منه وإصلاح ما يستطيع إصلاحه، وإن اختلف الناس حوله، واختلفت مواد البناء وأدواته.

وبالفعل نجح سيدنا الحسن "رضي الله عنه" في الحيلولة بين البناء وبين السقوط إلى أن سلمه صلحاً إلى سيدنا معاوية بن أبي سفيان "رضي الله عنه" بعد أن أخذ أكثر ساكنيه معظم ما كان فيه من متاع الحياة الآخرة وتركوا لبني أمية معظم ما كان فيه من متاع الحياة الدنيا، وبذلك كانت نهاية خلافة سيدنا الحسن نهاية للحكم الأخروي الدنيوي وبداية للحكم الدنيوي الأخروي، وكانت خلافة سيدنا معاوية "رضي الله عنه" تجسيداً واقعياً للحكمين.

١- اليمقوبي: مصدر سابق ج ٢، ص ١٩٢

وعن الموقف الذي وقفه الحسن رضي الله عنه من السلطة والذي غلب فيه مصلحة المسلمين العامة على مصلحته الخاصة وكشف فيه عن أصالة معدنه وسلامة طويته وإدراكه لمسؤوليته أمام الله سبحانه وتعالى، فقام عن الجلوس على كرسي الخلافة والناس من أجل الجلوس عليه يتقاتلون، نقرا ما كتبه الدكتور عبد الباقي كبير بقوله: "فيا له من موقف تصغر أمامه كل المواقف، ويا له من درس من أبي الحسن لكل أجيال هذه الأمة، ولا سيما الذين يقتتلون على الدنيا، ويمزقون أمة المسلمين وارض المسلمين، لكي يقفوا مع هذه المفخرة في التاريخ الإسلامي، وقفة مع الحسن لاستقاء العبرة والعظة، بأن الحرص على مصلحة الأمة ووحدةها هو السيادة وهو القوة وهو الشرف، وهو مقدم على مصلحة الفرد، فهل من سيد مسلم في عصرنا هذا يطل علينا من نافذة التاريخ ليذكرنا بما فعل أبو الحسن رضي الله عنه".<sup>١</sup>

### نتائج البحث

- أولاً: تم تغليب المصلحة العامة وهي مصلحة الجمهور المسلم على المصلحة الخاصة وهي مصلحة كل من المتنازعين على السلطة، محافظة على الدماء والأنفس والأموال.
- ثانياً: تأكيد المصادر والمراجع التاريخية القديم منها والحديث على أن الحسن رضي الله عنه تنازل طوعاً عن السلطة ولم يتعرض لأية ضغوط أو ابتزاز مالي يدفعه لذلك، مقدماً بذلك مصلحة عامة المسلمين على مصلحته الذاتية.
- ثالثاً: اعتبار إتمام الصلح من جانب معاوية والحسن رضي الله عنهما سنة سياسية حسنة لكل من بيده السلطة التي لا تسوي شيئاً أمام تجنب المسلمين كل ما من شأنه التأسيس للاحتراب.

١- عبد الباقي كبير: مرجع سابق، ص ٣٦٢

## المصادر والمراجع

- أحمد أمين. يوم الإسلام. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية (د.ت)،
- إبراهيم محمد زين، السلطة في فكر المسلمين. الدار السودانية للكتب. الخرطوم، ١٩٨٣م-١٤٠٣هـ
- ابن الأثير: عز الدين بن الحسن الشيباني. الكامل في التاريخ. بيروت: دار صادر للطباعة والنشر. ودار بيروت، ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.
- ابن تيمية: تقي الدين أحمد بن الحكيم. الفتاوى الكبرى. بيروت: دار المعرفة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م.
- ابن الجوزي. المنتظم في تواريخ الملوك والأمم، ج٣.
- ابن حجر: أحمد بن على العسقلاني. فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري. تح: محب الدين الخطيب وآخرون. القاهرة: دار الريان لتراث، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٥م.
- . الإصابة في تمييز الصحابة. تح: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- ابن حنبل: أبو عبد الله. كتاب فضائل الصحابة. تح: وصي الدين بن محمد عباس. بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- . الفتح الرباني مسند الإمام أحمد. رتبته: أحمد عبد الرحمن البنا. جدة: مطبعة دار العلم للطباعة، ١٩٥٨م.
- ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن أبي بكر. وفيات الأعيان وأبناء الزمان. تحقيق: محي عبد الحميد. القاهرة: دار الثقافة، (د.ت).
- خليفة بن خياط. تاريخ خليفة بن خياط
- الذهبي: الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام - عهد الخلفاء الراشدين. تح: عمر عبد السلام تدمري. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

- السيوطي: الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ)، تاريخ الخلفاء، تحقيق لجنة من الأدباء. مكة المكرمة: دار التعاون، (د.ت.).
- السيد عبد العزيز سالم. تاريخ الدولة العربية منذ عصر الجاهلية حتى سقوط الدولة الأموية. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٣٩١هـ-١٩٧١م.
- الشكعة: مصطفى. معالم الحضارة الإسلامية. بيروت- لبنان: دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، ١٩٨٨م.
- صابر محمد دياب، العباسيون ومشكلات عصرهم، الخرطوم: جامعة القاهرة فرع الخرطوم، ١٤٠٨-١٤٠٩هـ/١٩٨٨-١٩٨٩م، ص ٣٥٧-٣٥٨.
- النظم والنظريات السياسية دراسة تاريخية مقارنة. جامعة القاهرة فرع الخرطوم-الخرطوم، ١٩٨٨م-١٤٠٨هـ.
- الطبري: الإمام أبي جعفر محمد بن جرير.. تاريخ الأمم والملوك، ج ٣، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م
- عبد الباقي كبير. الخلافة الراشدة. الخرطوم. جامعة السودان المفتوحة، ٢٠٠٦.
- ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم. المعارف. تح: ثروت عكاشة، القاهرة: دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٣٨٨هـ/١٩٧٧م.
- عيون الأخبار. تح: يوسف على الطويل. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م. عيون الأخبار، ٤ أجزاء، القاهرة: ١٩٦٣.
- القضاعي: القاضي محمد بن سلامة بن جعفر الشافعي. تاريخ القضاعي كتاب عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف. دراسة وتحقيق: الدكتور جميل عبد الله محمد المصري. مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- ابن كثير: أبو الفدا الحافظ بن كثير الدمشقي. البداية والنهاية. بيروت: مكتبة المعارف، (د.ت.). والمجلد الثامن \_ الطبعة الأولى سنة ١٩٩٧ م \_ ١٤١٧هـ.
- كي لسترنج. بلدان الخلافة الشرقية. ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عوّار. بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.



- محمود شاكر. التاريخ الإسلامي. بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الرابعة ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.
- اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب - الكاتب المعروف بأبي واضح الأخباري، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، النجف: مطبعة الغري، ١٩٥٨م.
- \_\_\_\_\_ تاريخ اليعقوبي، ج ١، طبعة النجف، ١٣٨٥هـ، طبعة دار صادر بيروت.
- يوسف العش. الدولة الأموية والأحداث التي سبقتها ومهدت لها ابتداء من فتنة عثمان. دمشق: دار الفكر؛ ٢٠٠٨.